الأحجار الجائعة

للشاعر الفيلسوف رابندرانات طاغور الهندي

بقلم الأديب شكري محمد عياد

كنت قافلاً وقريبي من رحلتنا في پوچا عند ما لقينا الرجل في القطار. ولقد طالعنا من ملبسه ومسلكه ما جعلنا نراه بادئ الرأي مسلماً من أهل الأقاليم العليا. ثم راعتنا منه جهارة منطق، وعذوبة حديث. فقد كان واسع فنون القول، متشعب أطراف الكلام. وكنا قبل ناعمي البال لا نعلم أن قوى خفية تعمل؛ وأن الروس قد أصبحوا منا قاب قوسين؛ وأن سياسة الإنجليز تنطوي على أسرار، وتدور على عمق؛ وأن الخلاف بين الزعماء القوميين قد بلغ منتهاه، وأشرف على مداه. ولكن صاحبنا الجديد قال وهو يبتسم ابتسامة ماكرة: «إن في السماء والأرض لأحداثاً تجل عما تذكره الصحف». وإذ كنا قبل عاكفين على ديارنا لا نفارقها فقد دهشنا لحديث الرجل؛ كان يطرق الموضوع السائر فيخالطه بالعلم، ثم يعلق على الكتب المقدسة، ثم يردد رباعيات لشاعر فارسي. وكان قريبي رجلا من المتصوفة، فاعتقد اعتقاداً لا يخالجه شك أن صاحبنا مزود بقوة مغناطيسية خفية من لدن جرم في السماء؛ فكان إذا سمع تافهاً من القول تسقطه شفتا الرجل العجيب ابتسم معتداً، وأتى السمع جذلا. ويخيل إلي أن الرجل لاحظ منه إعجابه، فطرب له وارتاح.

وفي الساعة العاشرة مساء بلغنا المحطة حيث يجب تغيير وجهة السفر، وقصدنا إلى غرفة الاستراحة فسمعنا باحتمال تأخر القطار لارتباك أصاب الخطوط فهيأت لنفسي فوق النضد فراشا، وتأهبت لأسلم عيني لإغفاءة مريحة. ولكني لم أهجع تلك الليلة لغوباً ووصبا، فقد جاء الرجل يغزل غزله، ويحيك خيوط هذه الأقصوصة..

حينما ألجأتني الخلافات الإدارية إلى اعتزال منصبي في چنجارا، ودخلت في خدمة نظام حيدر أباد — كنت في صحوة شبابي، وعنفوان قوتي، فاختاروني جابياً لضرائب القطن في باريش

وباريش بلد جميل، يعزف السوستا فيه ألحانه على مجرى حجري وحصباء مفروشة، فيمسها مساً رقيقاً، كأنه أقدام راقصة ماهرة مفتتنة، ثم يسير بين الآجام متثنياً مرجحنا. ويرتفع منه سلم درجاته خمسون ومائة، يجثم في أعلاه قصر من رخام أقيم على سفح الهضبة، وأشرف على شاطئ النهر، وأقام في مكانه ذاك منعزلاً وحيداً.. فما كان حوله موطن لبشر، بل خلفته منازل القرية فريداً.

فمنذ مائتين وخمسين عاماً على التقريب ابتنى السلطان محمود شاه الثاني قصره ذاك ليجعله آية ترف وموطن نعيم، فماء الورد منبجس من نافوراته، وغيد الفرس يفترشن رخام الأرض في حجراته، وشعورهن للاستحمام مرسلة محلولة، وأقدامهن الناعمة عارية مبلولة، تعبث في الماء، فتنطلق حناجرهن بالغناء، ويرددن أصوات فارس على ألحان القيثار. ثم صوح جمال القصر وذهب عزه،

فلا ماء الورد ينبجس من نافوراته ، ولا الصوت الرخيم يرن فى جنباته ، ولا الأقدام البيض تتيه بمرمرى أرضه وحجراته ، صار لجباة الضرائب مستقراً ومقاماً ، وأولئك رجال حرموا دل النساء فهم فى وحشة سادرون .

ولقد طالما حذرنى الحاج « كريم خان » من أن أتخذ فى ذلك القصر مقامى . فقد قال لى : « إن شئت فمضّ هناك يومك ، ولكن إياك أن تبقى فيه ليلك ! » فضحكت منه بنفس لاهية وقلب جرىء . ورضى الخدم أن يعملوا هناك نهاراً على ألا يبيتوا فيه ليلا ، فوافقتهم دون مناقشة . فان للبيت اسما يبعث الرهبة حتى فى قلوب اللصوص ، فلا يجرؤون أن يقربوه متى حماه الليل بدرعه

ولقد جثمت على صدرى أول الأمر وحشة القصر المهجور ؛ فكنت أحب البقاء خارجه ، وأغرق نفسى فى العمل أطول مدة أستطيع ؛ فاذا أبت فى المساء كنت منهوكا مكدوداً ، فأنطرح على الفراش فتهجع عينى وتنام .

ولكن قبل أن ينقضى على ذلك أسبوع بدأ المكان يرينى من سحره عجباً ، حتى ليلتاث على الوصف ويعجزنى الأمر فما أعرف كيف أستطيع حمل الناس على التصديق . ولكنى شعرت كأنما كان البيت كائناً حياً يمتصنى دون شعور ، ويخدرنى بافراز عجيب من معدته ؛ ولعل البيت بدأ عمليته مذ وطئته قدماى أول مرة ، ولكنى أذكر جيداً ذلك اليوم الذى عرفت فيه ماهو بسبيله .

كنا فى أوائل الصيف ، وكانت السوق راكدة فلم يكن لى ما أعمله ؛ وقبيل الغروب كنت جالساً على كرسى مريح على ضفة الماء قرب سلم النهر ، وكان السوستا قد أجفل ، فانحسر إلى أسفل ، فامتد على الضفة المقابلة كثيب من الرمل يشع بأضواء المساء . والحصباء تحت المياه الضحلة براقة ملتمعة ، وقد خمد الهواء وهمد فما تحس نفخة ريح ولا نفحة نسيم ، وتحمل رائحة قابضة نفثتها شجيرات توابل تنمو على التل المصاقب . وعند ما غابت الشمس وراء التل انسدل على مسرح النهار ستار طويل . وتعجلت التلال المحدقة ظلمة المساء فأجهزت على الشمس ، وابتلعت فترة الغروب حينما يشعشع الليل أضواء النهار . فخطر لى أن أذهب راكباً فى نزهة . وبينا أنا موشك على النهوض إذا بوقع خطوات على الدرج ورائى ، فالتفت فلم أجد أحداً ، فعزوت ما سمعت إلى وهم خداع وخيال غرار . وجلست وما كدت أفعل حتى تخيلت جمعاً كبيراً يهبط الدرج ، فأخذتنى رجفة من سرور ، وهزة من خوف . ولئن لم تبصر عيناى أحداً فقد خيل إلى أنى رأيت سرباً من عذارى كواعب يهبطن الدرج ليستحممن فى السوستا . تلك الأمسية من أمسيات الصيف . وما كنت تسمع فى السهل أو النهر أو القصر صوتاً يبدد السكون ، أو نأمة تخفف الرهبة ، ولكن أذنى نقلت إلىّ فى وضوح ضحكات العذارى ، مرحة سعيدة . وحينما ذهبن إلى النهر يتطاردن لاعبات كنت أسمع هديراً كهدير ارتطام ينبوع بمائة شلال . ولكنهن لم ينتبهن لوجودى ولعلهن لم يريننى كما قصر عنهن بصرى . وكانت صفحة النهر ساكنة هادئة ، ولكنى شعرت كأنما حركتها أيد كثيرة ؛ توسوس فيها الأساور ، ويأتلق فيها الذهب . ثم ضحكن فدافعن موجاً عاشقاً فما خلاهن إلا لموج عاشق . فتقاذفن برشاش الماء فرحات ، وضربن الموج بأرجلهن الصغيرة فانطلق فى الهواء حبات من لؤلؤ ؛ فارتجف قلبى عجباً ، وخيل إلىّ أنى أستطيع بشحذ الحس أن أسمع كل ما يقلن ، فما سمعت إلا زقزقة العصافير فى الدغل القريب .

وخيل إلى أن ستراً من مائتين وخمسين عاماً قد قام من دونى ، فوددت لو رفعت منه ركناً ،

فأختلس النظر مرتعداً . ولكن الجمع ظل خفياً عن عيني ، يشمله الظلام فلا أراه . ثم هبت عصفة ريح فاجئة فأزاحت كابوس الليل ، وجعدت صفحة النهر ، فتلوى كشعر حورية . وانبعثت من الغابة المظلمة همهمة فكأنها أفاقت من حلم أسحم ...

فليكن ما رأيت حقيقة ، أو فليكن حلماً ، أو فليكن سراباً التمع من وراء مائتين وخمسين عاماً ، ثم خبا في مثل ومضة البرق ، أو لمحة البصر . ولكن هاتيك الكائنات السحرية التي اذ ّنفت من حولي ، تخطو بلا جسد ، وتضحك بلا صوت ، ثم ألقت بنفسها في النهر لم تعتصر أثوابها النضاحة بالماء عند ما همت بذهوب . بل حملها الريح على أجنحته ، كأنها عبير الزهر طوحت به أنفاس الربيع . فأفعمني خوف محبب ، وخشيت أن تكون عروس الشعر قد عابثتني ، فرأت وحدتي ، فحتوتني ... وكأنما أتني الساحرة لتحطم في شيطاناً فقيراً يتعيش من جمع ضرائب القطن ! فاعتزمت أن أهيئ لنفسي عشاء طيباً ، فالمعدة الفارغة موطن كل داء عياء . فبعثت في طلب الطاهي ، فأمرته باعداد عشاء فاخر .

وفي اليوم التالي بدا لي الأمر كله خيالاً عجيباً فتقبعت فرحاً وركبت إلى عملي . وكان علي أن أكتب تقريري ذلك اليوم ، فتأهبت لعود متأخر . فلما آذنت الشمس بالمغيب إذا بي أجد نفسي مسوقاً إلى البيت لعلة لا أدريها . وإنما كنت أشعر «أنهم» جميعاً في انتظاري ، فلا يليق أن أتأخر أكثر مما تأخرت . فقمت والتقرير لم يتم ، ثم تقبعت وشرعت أطوي الطريق الكثيب بعربتي حتى شارفت القصر الواسع المنعزل ، الرابض في سفوح الهضاب

وكان سلم الطابق الأول يؤدي إلى بهو فسيح شيد سقفه على ثلاث أقواس منقوشة ، تحملها ثلاثة صفوف من أعمدة ضخمة ، والسقف متصل أنينه ، رازح تحت ثقل وحدته . وكان النهار قد آذن بزوال ولما تضأ المصابيح . فما كدت أدفع الباب حتى ابتدرني لجب وضوضاء ، كأن أقواماً يتدافعون مسرعين ، ويهرعون إلى الأبواب والنوافذ والدهاليز والشرفات والحجر ، ويستبقون إليها هاربين ... ولكني لم أر أحداً ، فوقفت مأخوذ اللب مشدوهاً . وقد قف شعر رأسي من نشوة مجنونة ، وسطعت في أنفي رائحة العطور والأدهان وقفت في ذلك البهو العريض المنعزل ، والظلام يكتنفني ، وصفوف الأعمدة القديمة تحدق بي . فتبينت صوت نافورات تسفع ماءها رخام الأرض ، ولحناً غريباً يعزفه القيثار ، وخشخشة حلي ، ووسوسة خلاخيل ، ورنين أجراس تعد الزمن ، واصطفاق البلور في علائق الثريات ، وتغريد البلابل من أقفاص في الدهاليز ، ولقلقة اللقالق في الحدائق . تخلقت أصواتها حولي موسيقى غير أرضية

ثم أدى بي الأمر إلى الاعتقاد بأن هذه الرؤى التي لا تمس ولا تبلغها يد ولا تنتسب لأرض إنما هي الحقيقة الفريدة في هذا العالم ، وليس ما عداها إلا حلما . فلقد كنت أذكر أن اسمي سرجوت بن طيب الذكر فلان ، وأني أتقاضى مرتباً قدره أربعمائة وخمسون جنيهاً ، جزاء وظيفة جامع لضرائب القطن ، وأني أركب كل يوم إلى مقر عملي في عربة صغيرة ، وسترة قصيرة ، وقبعة عريضة ، فلا أرى كل ذلك إلا وهماً عجيباً يبعث على السخرية ، فأنفجر ضاحكا في صوت أجش ، وأنا واقف وسط البهو المظلم

وفي تلك اللحظة يدخل خادمي وبيده مصباح مضاء من الكيروسين . ولست أدري إن كان يحسبني مجنوناً ، ولكني كنت أفئ إلى عقلي وأثوب إلى رشادي ، فأومن أني حقاً سرجوت بن طيب الذكر فلان ، ومهما قال الشعراء إن على الأرض أو خارجها أصقاعاً تنبجس فيها نافورات لا تبصرها العين ، وتعزف أصابع غير مرئية على أوتار لا تسمعها الأذن ، مهما قالوا فأنا ولا ريب أجمع ضرائب القطن

من سوق باريس ، وتدر على مهنتي أربعمائة وخمسين جنيهاً في العام . ثم أضحك مما كنت أسبح فيه من وهم وضلال ، وأجلس إلى منضدتي الصغيرة فأقرأ الصحف على ضوء مصباح الكيروسين ، ثم أفرغ من صحيفتي ، وأتم عشائي ، وآوي إلى مضجعي في غرفة صغيرة جانبية ، وأنظر من النافذة فإذا نجمة وضيئة تطالعني من فوق تلال (آفالي) ، تحدق من ملايين الأميال إلى السيد الجامع ، راقداً في فراشه الصغير المتواضع ... ؛ وأفكر في ذلك وأطيل التفكير ، فيملأني التفكير سرورا ، فلا أدري كيف أغفلت عيني وران النوم على جفوني ، بل أهب فأقعد متفزّراً ، ولكني لا أسمع صوتاً ولا أرى أحداً ، لا شيء إلا أن النجم خبا ، وضوء القمر الباكر يتسلل من النافذة المفتوحة كأنه خجلان من اندفاعه ، خزيان لتطفله ... !

لم أبصر أحداً ولكني أحسست كأن يداً رفيقة تدفعني ، فلما صحوت لم تنبس بكلمة ، بل أومأت إلى بأصابعها الخمس الحلاة بالخواتم أن اتبعني واحذر واتئد . فانبعثت لا أحدث صوتا ، ولم يكن في القصر سواي ، فكنت فريداً في أجنحته المتيدة ، مجيباً لأصدائه النائمة ، وأصدائه الحالمة . ولكنني كنت أخشى مع كل خطوة أن أوقظ أحداً . وكانت أغلب غرف القصر على الدوام مغلقة لا أطرقها أبداً . فاكتتمت أنفاسي ، وتبعت قائدتي التي لا أراها ، لا أدري الآن إلى أين ... ! لله ما أحلك الظلام ، وما أطول الطريق ، وما أبعد المدى ... ! ولكم جزت من حجرات عليها مسحة الجلال ، ومررت بدهاليز فيها خشوع الرهبة ، واتخذت من الظلام جلابيب سودا : لم أك أري دليلتي الفاتنة ، ولكنني أبصرتها بعين خيالي ، عربية عذراء ، لها ذراعان قويتان لامعتان كالمرمر ، تبدوان من بين طيات كمها الفضفاض وقد ضربت على وجهها خماراً رقيقاً ، وتمنطقت خنجراً ملتوياً . فخيل إلى أن ليلة من ألف ليلة قد أقبلت على من دنيا الخيال ، كأنها نفحة العطر يحملها نسيم الربيع . وكأنما كنت أسير في دروب بغداد النائمة والليل مظلم بهيم ، ميمما شطر مجتمع تحف به الزوايا .

وأخيراً توقفت قائدتي الحسناء قبالة ستر أزرق عميق الزرقة ، ثم كأني بها أشارت إلى شيء أسفله . وما كان هناك من أحد ، ولكن جمد الدم في قلبي من فزع ورهبة ، فقد خيل إلى أني أبصرت على الأرض بين طيات الستر عبداً خصياً ، لابساً حلة من حرير مشجر ، وساقاه ممدودتان قدامه ، والسيف مسلول على فخذه . فمشت صاحبتي تسترق الخطى ، ورفعت من الستر ركنا ، فلمحت غرفة فرشت بأبسطة فارسية ، فيها سرير توسدته غادة لم أر منها إلا قدمين بديعتي التكوين ، في كوث مذهب عجيب الصنعة ، تطلان من منامة سابغة فضفاضة زعفرانية اللون ، وتستريحان على بساط من مخمل برتقالي الصبغ ، وإلى جانبها طبق بلوري يتأهب لاستقبال زائر قريب ، بما فيه من تفاح وبرتقال وعنب وكمثرى وسكرية مذهبة ، وهفهف حوالى شذا بخور عطر فكان يغيب عقلي ، ويرين على حواسي

وتقدمت والقلب واجف والطرف طارف لأتخطى أقدام الخصي ، فهب مذعوراً فسقط السيف من على فخذه فرن على رخام الأرض . فصرخت مرتعباً فإذا أنا قاعد على الفراش أتصبب عرقاً ، والهلال يبدو شاحباً ، وقد كسفه ضوء النهار ، كعليل أشرف عليه الفجر ، ولم يهجع منه الطرف ولا نام . وماهر على المتوه يصيح صيحة كل صباح : « مكانك ! مكانك : إنك لفي ضلال ! إنك لفي ضلال ! » ويطوى بقدميه وحشة الطريق .

وكذلك ولى حلم ليلة ، ولكن بقي ألف حلم ، وتنافرت أيامي ولياليّ ، ففي الصباح كنت أذهب إلى عملي منهوكا مكدوداً ، لاعناً سحر الليل وبرقه الخلب ، فإذا أقبل المساء خلعت بردة النهار ،

وتقنعت بقلنسوة من مخمل أحمر ، وارتديت منامة فضفاضة وصداراً موشى ، وقفطاناً سابغاً هفهافاً . فإذا أخذت زينتى جلست على كرسى واتكأت على حشايا ، واستبدلت بلفائف التبغ « نارجيلة » ملواة ملؤها ماء الورد . فكأنى أتأهب لاستقبال عشيقة موموقة ، وإن البيان ليقصر عن وصف ما تكشفت لى عنه ظلمة الليل من عجائب وخوارق

وبين موج الحلم الجميل ، وشذا الزهر العاطر ، ورنين القيثار المطرب ، وهفهفة النسيم المعرف ، كان الطرف يسنح فيلمح غادة وضاءة ، هى تلك التى رأيتها قبل فى منامة زعفرانيـة اللون ، وأبصرت منها قدمين بيضاوين ناعمتين ، فى كوث موشى بالذهب ، مَلوِىّ مقدمه ؛ وكانت تتمنطق بنطاق من ذهب ، وتتقبع بقلنسوة حمراء تنوس حافتها على خد فى بياض السوسن ، وجبين فى صفاء الثلج . ولقد والله أخذت بلبى . فكنت أطاردها من حجرة إلى حجرة ، وأتأثرها من ردهة إلى ردهة ، وأتقفاها من بهو إلى بهو ، فى منعطفات خلقها الخيال ، ومنعرجات أوغلت فى ابتداعها الأحلام ، فكأنى أهيم فى الأرض السفلى ، أو أضرب فى طرقات الجحيم ! فأحس فى أريج الجو قبلات هائمة ، وبسمات حائمة ، ورنوات حالمة ، وتدليلا وعناقاً ، وقلباً خفاقاً ، وهمساً فى الأذن ! ثم تطوق جسدى أفعى عجيبة وتلف حَوِيّاتها حولى ، فأفقد الحس وأروح فى نوم عميق

وذات مساء أزمعت الخروج على صهوة جوادى ولم أصغ لتوسل أو رجاء ، ولكن أى توسل ؟ وأى رجاء ؟ وكانت على المشجب قبعتى وسترتى ، فبينا أنا موشك أن أنتزعهما هب إعصار فاجىء محمل برمال السوستا ، وهشيم الأوراق الذابلة الساقطة على تلال آفالى ، فأطاحهما ودار بهما دورات عديدة فجلجلت ضحكة مرحة مُرِنّة ، تعالت وارتفعت فياضة بالحبور والسعادة ، ثم تلاشت على تخوم الغروب : فلم يعد عن البقاء محيص ولا متحول . وفى اليوم التالى ألقيت — قانطاً — بقبعتى وسترتى فلما أدبر النهار ونشر السكون ذوائبه الفاحية ، سمعت فى هدأة الليل ولولة مكتومة تشق المرائر ، وكأنها صادرة من تحت الفراش ، من تحت أرض الحجرة ، من تحت أحجار ذلك القصر العظيم ، من أعماق هوة دامسة ، من أغوار جدث أسحم ! وسمعت صوتاً يستغيث : « أواه ! أنقذنى ! تخط أبواب الوهم ، وجز طرقات النوم العميق ، والحلم العقيم : خذنى إلى جانبك على صهوة جوادك ، ثم ضمنى إلى قلبك ، وطر بى فوق الربى والحزون ، واطو الغاب والنهر ، وجز رجام البيد : خذنى إلى علاك المضىء ، وشمسك الضاحية ، وهوائك الطلق »

وفجأة فى تلك اللحظة صاح ماهر على المجنون : « مكانك ! مكانك ! إنك لفى ضـلال ! إنك لفى ضلال » ! ففتحت عينى على ضوء يفيض فيغمرنى ؛ وإذا بخادمى قد أقبل بخطاباتى ، والطاهى ينتظر أوامرى ! فقلت : « كلا ! لن أبقى هنا بعد الآن » وحزمت فى ذلك اليوم حقائبى ، وتحولت إلى مقر عملى ، فابتسم كريم خان ابتسامة طفيفة ؛ فاحتدمت غيظاً ولكنى لم أنبس بكلمة ، وانهمكت فى العمل ؛ فلما أقبل الليل شت منى الفكر وشعرت كأنى كنت ضربت موعداً لابد أن أوفيه ، وبدت لى مراجعة ضرائب القطن شيئاً تافهاً لا غناء فيه ، ثم خلت الحاضر وهما ، والسعى فى سبيل العيش ضلالا وجرياً وراء عرض تافه . فألقيت القلم وطويت الدفاتر ، وركبت عربتى الصغيرة . ولاحظت أنها توقفت من تلقاء نفسها أمام بوابة القصر الرخامى ، وكان الشفق يكلل جبين الأرض ، فجشمت الخطى صاعداً الدرج ثم داخلا الحجرة . وكان يرين عليها

صمت عميق ، وقد ساد الظلام غرف القصر فبدت غاضبة معرضة . وامتلأ قلبي ندماً ولكني لم أر أحداً أفضي إليه بسر فؤادي ، أو أسأله العفو والمغفرة ؛ فجست في ظلمة القصر موزع الفكر مشتت الذهن ووددت لو كان لي قيثار فأضرب على أوتاره ،وأزجي منه الألحان إلى غادتي المجهولة : « أيتها النار ! إن الفراشة الضالة التي أرادت لتبتعد عنك قد عادت لترى بهاءك ، فاغفري فإنما هي مرة واحدة ، والهبي جناحيها بجذوتك! » وفجأة سقطت دمعتان فانحدرتا على جبيني ، وحلقت على تلال آفاقي سحب سوداء، والأحراج الكئيبة تنتظر ، ومياه السوسنا القاتمة تترقب في قلق وسكون مخيف . ثم مادت الأرض، ومار الماء واهتزت السماء ،وهبت في الغابة المهجورة عاصفة ثائرة ، ففرقعت أبواب القصر

وكان الخدم كلهم في مكتب عملي ، فلم يبق منهم أحد فيضيء المصابيح ، وكانت السحب منعقدة والقمر ممتحقاً ، فأحسست في الظلام الدامس امرأة منبطحة على وجهها فوق سجادة تحت الفراش ، تشد بأصابع يائسة شعرها الطويل المتناثر ، وقد تسايل الدم على جبينها الوضاء ؛ وهي آناً تضحك ضحكات قاسية ، وآونة تصرخ صرخات مدوية

ولم تنقطع الريح طوال الليل ولا خمدت تلك الصيحة الأليمة . فطفقت أهيم في الظلام من حجرة إلى حجرة ، وقد سعر الهم قلبي ، وأظلم الحزن نفسي ... من أواسي ولا أحد يجنبي ؟ ومن هي تلك التي جن جنونها من عذاب وألم ؟ ومنذ متى جثم على قلبها ذلك الحزن المقيم ؟

وصاح الرجل المعتوه : « مكانك ! مكانك ! إنك لفي ضلال ! إنك لفي ضلال ! » فإذا النور قد انبثق ، والفجر قد بزغ ، وماهر علي يطوف بالقصر يصيح صيحة في ذلك الطقس اللعين ، وخطر لي أنه ربما كان قد عاش في ذلك القصر أيضاً ، ثم لم يعقه عن المجيء جنونه ، فصار يأتي كل صباح ويحوم حوله مفتوناً بسحر المارد المرمري ، فاندفعت إليه لا أبالي بالزوبعة الثائرة والمطر المنهمل ، ولم يجب الرجل ، بل تحاشاني عن طريقه ، وظل يحوم صائحاً صيحته المجنونة، فكأنه طائر يرفرف مسحوراً حول أنياب ثعبان، فعدوت إلى مكتبي وسط المطر المنهمر ، فكأني مجنون ذاهب العقل مسلوب الرشاد . وسألت كريم خان: «خبرني ما معنى كل هذا ؟» فقال: إن جدران هذا القصر ضمت عواطف كبتت ، ونزوات كتمت ، وشعلا من اللذة ثارت والتهبت ؛ فتصاعدت منه دعوات ولعنات من قلوب مكلومة ، وآمال محطمة ؛ فصيرت كل حجر منه جوعان ظمآن ، فكأنه غول جائع يبتلع كل من يدنو منه . فلم يستطع الإفلات من أنياب هذا القصر كل من أقام فيه ثلاث ليال متتابعة ، إلا ماهر علي الذي دفع عقله ثمناً لنجاته

فسألت : « أما من خلاص ؟ » فأجاب الرجل العجوز : « هنالك طريق واحد فحسب ، ولكنه صعب وعر ، وسأرشدك إليه ، ولكني سأسمعك قبلاً قصة عذراء فارسية عاشت في ذلك القصر الفخيم ، وإنها لقصة لم تعرف الأرض أفخم منها » وفي تلك اللحظة تناقل السافرة أن القطار قد أقبل . هكذا سريعاً ؟ وطفقنا نرتب أمتعتنا عجلين . وبينما كان القطار يزفر زفيره وهو داخل المحطة ، رأينا رجلاً انجليزياً يطل من نافذة في الدرجة الأولى ويحاول أن يقرأ اسم المحطة . وما كاد يلمح صاحبنا حتى ناداه وحياه وأخذه في رفقته . وكانت تذاكرنا للدرجة الثانية ، فلم نعرف الرجل ولا خاتمة قصته . فقلت : « من الواضح أن الرجل ظن فينا البلاهة والسذاجة فاتخذنا هزأة وملهاة ، فالقصة خيال من مبدئها إلى منتهاها »

شكري محمد عياد